ـذوات الإنسانيَّـة

الإنسان» التي جاءت بها الثورة الفرنسية أو تضمنها إعلان الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٨. إنها حقوق مرتبطة بإنسانية الإنسان، شبه فطرية، مزروعة في ضمير كل الذوات البشرية. فعلى البشر أن يلتقوا حول مبدأ الكرامة ويدافعوا عنه كي لا يتردى العالم في صراعات الهيمنة الكلية، وعلى كل فرد في العالم أن يتحمل مسؤولية في هذا المجال.

ويرى الكاتب أنَّ الهيمنة في المجتمعات الصناعية كانت تمارس على العالم الموضوعي، أي الممتلكات ورؤوس الأموال والبضائع والآلات، لكن بروز تكنولوجيات الاتصال الحديثة جعلت الهيمنة تنتقل إلى العالم الذاتي للإنسان، وهذا ما يدعوه للتحول إلى الهيمنة الكلية. فإذا كانت الحركة التحررية في القرن العشرين قد ارتبطت بما هو موضوعي: تحرير الوطن، تحرير العمال، تحرير المرأة...إلخ، فإنها مطالبة في القرن الحادي والعشرين بأن يكون هدفها الرئيسي تحرير الذوات، أي السماح لكل إنسان ولكل مجموعة بشرية بأن تعبر عن ذاتها وخصوصيتها وطريقة تأويلها لكل ما يحيط بها. لقد سقطت كل النظريات الكبرى التي حاولت أن تجمع البشرية، من الأديان إلى الاشتراكية والتطور العلمي، ولم يبق للإنسان إلا أن يدافع عن الكرامة، وهي تحديدا هذه الحرية في أن يحتفظ بذاته خارج إطار أنظمة الهيمنة المتنافسة عليه.

والحقيقة أن التحليل الذي يقدمه الكاتب على مدى ٤٠٠ صفحة في الكتاب يترك لدى القارئ شعورا بالخيبة والتشاؤم، لا سيما وهو يصدر عن عالم اجتماع مرموق ما فتئ يتابع تطورات العالم المعاصر. ذلك أن البديل الذي يدافع عنه يبدو مقتصرا على مواجهة هذا العالم الرهيب من الهيمنة الذي يُحلل أبعاده تحليلا ضافيا مسهبا. لكن يمكن أن تمضي إلى ما هو أبعد في النقد، فنتساءل: هل التحليل ذاته قد استوفى كل جوانب المسألة؟

يبدو التحليل مُتضمنا ثلاث ثغرات كبرى.. أولا: نجده وكأنه يقابل بين رأسمالية صناعية طيبة ورأسمالية ممولنة شريرة يحملها مسؤولية الهيمنة، وهذا أمر غير مُسلَّم به. فلئن كانت أعمال الاقتصادي جوزيف ستيجلز -الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد- قد فرضت هذه المقابلة بين مرحلتين

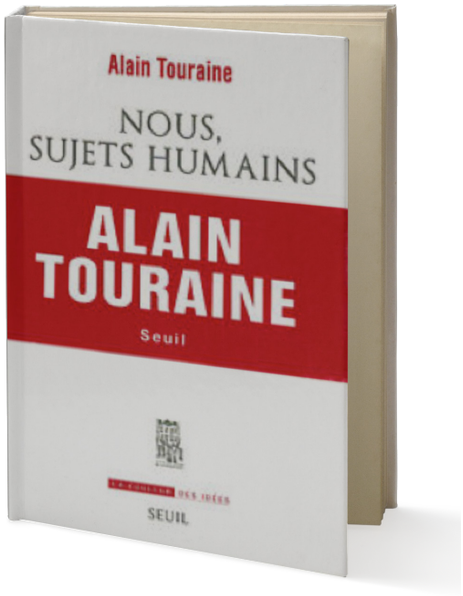

من الرأسمالية، فإن ذلك لا يعني أن الرأسمالية سابقا كانت خالية من الهيمنة. ذلك أن الكاتب ينظر إلى المسألة من منظور الغرب، ولو أنه حاول استقراء ذاتية الرؤية من خارج الغرب، لرأى أن الرأسمالية الصناعية قد مارست هيمنة عنيفة على العالم عبر الاستعمار وفرض النمط الغربي على كل المجتمعات والثقافات الأخرى وسلب الشعوب ثرواتها الطبيعية لتنمية الأرباح الفاحشة للمؤسسات الصناعية الغربية، وأن الرأسمالية الصناعية قد حسنت وضع العمال في الغرب بعد صراعات مريرة معهم، وأرست ما أصبح يُعرف بالطبقة الوسطى، لكنها خلقت أيضا شرائح واسعة من الفقراء والمعدمين بسبب تنامي البطالة.

ثانيا: الهيمنة التي مارستها الرأسمالية الصناعية أو الأنظمة الكليانية سابقا (مثل الشيوعية) لم تكن هيمنة على الموضوعي فحسب، فد كانت أيضا هيمنة على الذاتيات وحطًا بكرامة البشر، فلا يبدو مقنعا تمييز الكاتب بين نمطي الهيمنة في الماضي والحاضر. ولئن كانت وسائل الاتصال الحديثة قد خلقت أنواعا من الهيمنة الناعمة، فإن هذا المعطى لا يغير من طبيعة الهيمنة في ذاتها، وإنما هو تغيير في وسائلها. بل ليس من المتأكد أن دور وسائل التواصل الحالية أكبر من دور المذياع أو التليفزيون أو وكالات الأنباء الكبرى في المراحل الأول من انتشارها في العالم.

ثالثا: إنَّ البحث عن كرامة بشرية في المطلق -يمكن أن تمثل الحد الأدنى المشترك بين الذوات البشرية- لا يختلف كثيرا عن البحث سابقا عن حقوق إنسانية كونية، على نمط إعلان الثوار الفرنسيين بعد ١٧٨٩، أو الإعلان الصادر عن الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨. فالكرامة أيضا لا يمكن أن تطرح خارج سياقاتها الثقافية المخصوصة، بل هي أكثر ارتباطا بهذه السياقات بسبب طابعها الذاتي.

ومن هنا، يبدو كتاب توارن الأخير وكأنه يكشف القصور الهيكلي لعلم الاجتماع، وقد نشأ مع الثورة الصناعية، في فهم تعقيدات العالم ما بعد الصناعي، ونقصد تحديدا علم الاجتماع الأوروبي الذي يبدو أنه يحاكم العالم انطلاقا من الحنين لعهد التفوق الأوروبي، والتغاضي عن كون الثورة الصناعية التي انطلقت من أوروبا قد حملت أيضا قدرا هائلا من العنف والهيمنة. ولعل تحول أوروبا اليوم من وضع المهيمِن إلى وضع المهيمَن عليه هو الذي يدفع مفكريها البارزين إلى رؤية متشائمة بشأن الهيمنة، وتحديد طوباوي لمسألة الكرامة. أما إذا نظرنا للموضوع من موقع غير أوروبي، فقد لا نشعر بتغيرات نوعية في طبيعة العالم المعاصر؛ إذ تظل الهيمنة إحدى خصائصه البارزة في الماضي كما في الحاضر، وتظل قضية الكرامة طموحا إنسانيا مشتركا، لكنها تختلف حسب السياقات والأوضاع، ويستحيل أن نفصلها عن معطياتها الموضوعية، لأن مطلب الضحية لا يمكن أن يقتصر على التعبير عن استقلالية ذاتها، وإنما هو أيضا تغيير الواقع الموضوعي المتسبب في الهيمنة. وإن الفقير لن يشعر بالكرامة يوم يعلن العالم احترامه للفقراء ويفتح لهم منابر التواصل للتعبير عن ذواتهم، وإنما سيشعر بالكرامة يوم يتخلَّص من حالة الفقر. لكنَّ المثقف الذي ينظر إلى قضايا العالم على أنها قضايا في المعنى قد لا يعي جيدا هذا المعطى.

- الكتاب: «نحن.. الذوات الإنسانية».
- المؤلف: آلان توران.
- الناشر: (Seuil)، اللغة الفرنسية.
- سنة النشر: ٢٠١٥.

* أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان

نحـــن.. الـ

مُحمَّد الحدَّاد *

في أواخر العام ٢٠١٥، نشر المفكر وعالم الاجتماع الفرنسي الشهير آلان توران كتابا عنوانه «نحن.. الذوات الإنسانية»، وقد اعتبره العديد من النقاد بمثابة الوصية الفكرية للكاتب الذي يبلغ من العمر تسعين سنة. حيث فرض توران نفسه على قائمة أكبر علماء الاجتماع في القرن العشرين، ولم ينقطع عن التأليف والنشر على مدى يتجاوز نصف القرن. وكانت كتبه الأولى التي نشرت في الستينيات من القرن الماضي تدور حول الحركات النقابية والاجتماعية، والمقارنة بين هذه الحركات في الغرب ومثيلاتها في أمريكا اللاتينية، وحظي توران بالشهرة في أمريكا لكونه من علماء الاجتماع القلائل في أوروبا الذين عرفوا بمعارضتهم للماركسية ومناهج تحليلها في علم الاجتماع.

ومع بداية التسعينيات، حيث انهارت الماركسية، بدأت كتابات توران تتجه إلى مقاربات ذات منحى فلسفي ونقدي، جسَّدها مثلا كتابه المترجم إلى العربية «نقد الحداثة» (صدر سنة ١٩٩٢، تعريب أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر، ١٩٩٧)، ثم «ما الديمقراطية؟» (صدر سنة ١٩٩٤، تعريب حسن قبيسي، دار الساقي، ٢٠٠١)، و«كيف نخرج من الليبرالية؟» (١٩٩٩). وابتداءً من الألفية الثالثة، نجد توران وقد بدأ يتحول من النقد إلى تقديم البدائل، فنشر «البراديغم الجديد» (٢٠٠٥)، و«عالم النساء» (٢٠٠٦)، و«التفكير بطريقة أخرى» (٢٠٠٧).. إلى أن نصل إلى كتاب «بعد الأزمة» (٢٠١٠)، و«نهاية المجتمعات» (٢٠١٣).

والكتاب الحالي الذي نقدِّمه هنا يبدو وكأنه نهاية هذا التفكير الطويل والمتواصل في محاولة تحديد خصائص عالمنا المعاصر. وكأنه قد انتهى بصاحبه إلى نقض ما بدأ به، واعتبار أن العالم لم يعد قائما على الصراعات الاجتماعية، وإنما أصبح قائما على قضايا «أخلاقية» أو «تأويلية»، بالمعنى الذي سنوضحه لاحقا، لذلك كان عالمنا اليوم جديدا ومختلفا عن الماضي.

لقد تعمَّدنا عدم ذكر الكتاب الذي أدخل توران عالم الشهرة وجعله يحتل مكانة متميزة في علم الاجتماع للقرن العشرين، ونقصد تحديدا كتابه الشهير: «المجتمع ما بعد الصناعي» الصادر سنة ١٩٦٩، وقد انتشر هذا المفهوم في علم الاجتماع منذ ذلك الحين، وظل ينافس على مدى عقود مفهوم «مجتمع ما بعد الحداثة». والفارق بين المفهومين أن الأولى يُغلب الجانب التقني (الصناعة) في تحديد خصائص العالم المعاصر، بينما يُغلب الثاني الجانب الثقافي. ومن هنا، كانت أكبر مفاجأة لقارئ كتاب توران الأخير «نحن.. الذوات الإنسانية»، إعلان الكاتب منذ الصفحات الأولى أنه يدعو لتجاوز المفهومين معا، ويرى أن العالم الجديد الذي دخلته البشرية حاليا شهد انتقالا نوعيا ويستدعي البحث عن مقولات تحليلية وإجرائية مختلفة، وأن علم الاجتماع، وقد نشأ صدى للثورة الصناعية، لا بد أن يقرأ اليوم العالم من خارج التقنية.

العالم الجديد يبدو عالما رهيبا، فهو يتأسس -حسب الكاتب- على ثلاثة أنظمة متنافسة للهيمنة: نظام الرأسمالية المولنة التي حلت محل الرأسمالية الصناعية، ونظام الدول الكليانية التي حلت محل الاشتراكية، ونظام الأنظمة الاستبدادية ما بعد الوطنية. وإذا أردنا أن نجسد هذا الوضع على أرض الواقع جعلنا الغرب عنوانا للهيمنة الأولى، والصين وروسيا للثانية، وبعض بلدان العالم الثالث -مثل إيران وكوريا الشمالية- نموذجا للثالثة. فالعالم لم يعد محددا بالاختلافات التقنية؛ لأنَّ التقنية في ذاتها أصبحت ملكية مشتركة بين الجميع، ولا حتى بالحداثة التي أصبحت مستعملة في كل مشاريع الهيمنة، وإنما خاصية العالم الذي نعيشه اليوم هو ما يدعوه الكاتب للنزوع الكلي للهيمنة.

وتتميَّز الهيمنة الأولى بالانتقال من الرأسمالية المنتجة للعصر الصناعي إلى رأسمالية تقوم على مبادلات مالية غير منتجة وتقاسم الأرباح بين عدد محدود من البشر. وقد انتهى بذلك الدور المحوري الذي كانت تقوم به الصناعة في توجيه العالم الحديث، وانتهى تبعا لذلك دور الحركات الاجتماعية والنقابية التي قامت بدور كبير في تغيير المجتمعات منذ القرن التاسع عشر. أما الهيمنة من النوع الثاني والثالث فتتميز بفرض رؤية رسمية ونمطية على الجميع دون مراعاة الاختلاف والتنوع داخل المجتمعات. وغالبا ما تتجه إلى إلقاء المسؤولية على الغرب، بما يعزز أطروحة صدام الحضارات وينشر البغضاء بين البشر.

أمام هذا الواقع الرهيب للعالم اليوم، يتعين العودة إلى ما هو متأصل في البشر جميعا، كي يقاوموا الهيمنة بكل أشكالها، وهذا هو معنى عنوان الكتاب «نحن.. الذوات البشرية». ومن واجب عالم الاجتماع -والمثقفين عموما- دراسة آليات الهيمنة وكشفها وتوجيه الطاقات الاحتجاجية ضدها، بدل الدخول بالبشر في صراعات هيمنات متنافسة. وهذه المقاومة في شكلها الجديد ذات طابع أخلاقي.

لكن ما هو القاسم المشترك الذي يُمكن أن يلتقي حوله البشر الرافضون للهيمنة؟ الجواب -حسب الكاتب- لا يُمكن أن يقف في حدود المبادئ المعروفة: الحرية، المساواة والإخاء (شعار الثورة الفرنسية)، بل من الضروري أن يتجاوزها إلى مبدأ أهم وهو الكرامة. وهذا المطلب -الكرامة- ليس مطلبا سياسيا أو اجتماعيا ومغنما، بل هو مطلب أخلاقي أساسا. والأخلاق هنا بمعنى الإتيقا وليس معنى القواعد السلوكية المختلفة من مجتمع إلى آخر، أي أنها كونية، أو هكذا يفترض الكاتب أن تكون. وتتمثل -حسب رأيه- في الحقوق الإنسانية، وهي غير «حقوق